صوت الأزهر

جامعاً وجامعة

رئيس التحرير
سليمان قناوى

١٤ صفحة | ١ جنيه

www.Alazhar.gov.eg

العدد ٦٤٨ السنة الثالثة عشرة . الجمعة ٢ من ربيع آخر ١٤٣٣هـ

قبس من روح التسامح فى الإسلام «رؤية معمارية»

بقلم :
د. خالد محمود هيبة

على الرغم مما يدعيه الغرب من تبنيه وريادته دون غيره لقيم التحضر والمدنية والتسامح مع الأخر، حيث يتم ربط ذلك دوماً بما شهدته أوروبا من تطور حضاري في مرحلة ما بعد العصور الوسطى، وبخاصة مع نهاية القرن الثامن عشر، حينما نشبت الثورة الفرنسية عام (١٧٨٩م)؛ والتي يعتبرها الكثيرون بداية عصور التحرر الإنساني!، إلا أن الواقع الاستعماري الذي مارسه الغرب نفسه أو من ينوب عنه- كما هو الحال بالنسبة لإسرائيل- ضد أغلب شعوب العالم بعد ذلك يظل شاخصاً؛ ليدلل ويبرهن على زيف تلك الدعاوى وللآن، كما يؤكد زيف ذلك الادعاء أيضاً ما يثيره البعض في الغرب ممن يطلق عليهم وللأسف (مفكرين)، من دعاة نظرية حتمية صدام الحضارات الشهيرة في الغرب، أمثال " فرانسيس فوكوياما" و"صامويل هنجتون" وغيرهما، من نظرة سلبية تجاه الآخر دوماً وبخاصة لكل من ينتمي إلى دين الإسلام؛ ليحملوا على حضارة الإسلام متهمين إياها بأنها معول هدم للحضارات الأخرى!

وبنظرة معمارية تاريخية فاحصة يمكن إدراك كذب تلك الافتراءات ودحضها بمناقشة بعض الحقائق التاريخية التي قد تمر بنا دون أن نهتم لها، لنتدبر فيما تحويه من معاني ودروس وعبر، لنفسح بالتالي المجال للآخرين من أمثال هؤلاء المفكرين المدعيين أن يقيموا ما يجب أن نقوم نحن بتقييمه بأنفسنا من تاريخنا وحضارتنا التي أهملنا تدارسها فهانت على الآخرين بعدما هانت علينا، ومن ذلك أجدني مأخوذاً عند بعض المحطات التاريخية المعمارية عبر تاريخنا الإسلامي الممتد طيلة ما يزيد عن الأربعة عشر قرناً من الزمان منذ عهد البعثة المحمدية المباركة وللآن، والتي قد يكون في التوقف عندها ومناقشتها مناقشة موضوعية رداً على بعض من تلك الدعاوى وهذه الافتراءات، التي تحاول النيل من عظمة الإسلام وتسامحه، بل واحترامه وتقديره أيضاً للحضارات الأخرى أيما كانت وأينما وجدت.

وأولى تلك الوقفات هي ما قام به الوالي الجليل الصحابي "عمرو بن العاص" رضي الله عنه عندما منّ الله تعالى على المسلمين بتحقيق بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتح مصر، وذلك في عهد الخليفة الرشيد أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه عام ٢٢هـ من احترام لخصوصية المصريين وتاريخهم الممتد وتراثهم المعماري المميز، فعلى الرغم من الاستجابة السريعة التي لاقاها هذا الفاتح العظيم من المصريين نحو الإسلام والدخول إليه طواعية لما لاقاه ذلك الدين الحنيف بتعاليمه السمحة من قبول يتوافق والشخصية المصرية المتدينة بفطرتها عبر التاريخ منذ بعثة "إدريس" و"إبراهيم" و"يوسف" و"موسى" و"عيسى" وغيرهم من أنبياء الله رضوان الله عليهم أجمعين، ممن كانت أرض مصر تمثل جزءاً هاماً من تاريخ بعثتهم المباركة، فضلاً عما رفعه الإسلام بعدله من ظلم وجور عانى منه المصريون طويلاً على أيدي الرومان المحتلين، فلم يجد (عمرو بن العاص) غضاضة من الاحتفاظ بآثار هؤلاء المصريين الممتدة عبر أرض وادي النيل، فلم يأمر بهدم تمثال أو تشويه زخارف أو رسومات أو هدم معبد فرعوني قديم أو إغلاق كنيسة أو دير أو غيرها؛ ليضرب المثل والنموذج في تسامح الإسلام وتفهمه للحضارات الأخرى ذات المرجعيات المختلفة، وليحفظ لنا ذلك التراث الإنساني الحضاري وللآن، وليدلل ذلك أيضاً على احترام الإسلام منذ بداياته لتراث الآخرين وثقافتهم وفنونهم، في الوقت ذاته الذي يرفع فيه بعض المفكرين الغربيين دعاوى محاربة الإسلام للفنون والحضارة، ويسوقون الحجج والبراهين على أن انتشاره السريع قد تم عبر سحق الحضارات الإنسانية الأخرى بالسيف والقهر وغيرها من دعاوى مردودة بذلك النموذج الحضاري الذي ضربه المسلمون الأوائل عند فتحهم لمصر.

أما الوقفة الثانية فأجدها تتمثل فيما قام به الفاتح الموعود السلطان "محمد الثاني" أو "محمد الفاتح" عام ١٤٥٣م عندما منّ الله تعالى عليه بتحقيق البشارة الأخرى للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بفتح عاصمة الدولة الرومانية الشرقية مدينة "القسطنطينية" أو"استانبول" بعد ذلك، والتي استعصت طويلاً أمام الفاتحين المسلمين، لتجد بعد تمام فتحها وضمها إلى رقعة دولة الإسلام؛ كل احترام وتقدير لحضارتها السابقة وتراثها، سواء أكان ذلك التراث ينتمي للعهد الوثني أو المسيحي؛ فعلى الرغم من تحويل السلطان الفاتح لكبرى كنائس المدينة كنيسة "آيا صوفيا" لتصبح مسجداً بعد أن قام بشرائها وسداد ثمنها بالكامل لملاكها، إلا أنه لم يعمد إلى تشويه الرسومات المسيحية المنتشرة عبر أرجائها، بل قام بتغطية هذه الرسومات بالملاط احتراماً منه وتقديراً لحضارة ودياتة سابقة، لم تجد من المسلمين الأتراك الفاتحين إلا كل تقدير واحترام، لتعود تلك الرسومات بجوار الآيات القرآنية بعد ذلك في عهد الجمهورية التركية عندما تحولت "آيا صوفيا" إلى متحف يشهد على تسامح الإسلام ورقي فاتحيه العظام، الذين تركوا في الوقت ذاته وداخل مقر إقامة خليفة المسلمين في قصر "توب كابي" الشهير كنيسة أخرى لا تزال قائمة وللآن داخل حدود القصر وهي كنيسة "سانت ايرني" ذات الطراز البيزنطي المميز ليمارس فيها من تبقى من مسيحي (القسطنطينية) ممن لم يدخلوا الإسلام صلاتهم دون خوف أو تهديد، في ظل رعاية دولة الخلافة الإسلامية، ليشهد ذلك كله على مدى تسامح الإسلام وعظمته واحترامه للآخر بعيداً عن دعاوى هؤلاء الغلاة من المفكرين الغربيين.

أما فيما يختص بأخر تلك الوقفات فتتمثل في ذلك المنتج المعماري الإسلامي المميز، ونعني به عمارة المسجد المتنوعة والمنتشرة عبر أرجاء العالم الإسلامي الممتد من الهند للعراق، ومن مصر إلى المغرب، عابراً المتوسط إلى الأندلس في أوروبا، حيث استوعب هؤلاء الرعاة البسطاء الفاتحين فنون العمارة والبناء لكل هذه الحضارات المتنوعة- على افتقارهم في حياتهم البدوية البسيطة قبل البعثة المباركة لمثل تلك العمارة عبر تاريخهم المتواصل في الجزيرة العربية- فلم يصطدموا بالحضارات وعمارتها بل تطورت على أيديهم فنون التشييد والبناء على تنوعها، من هندية إلى فارسية، ومن رومانية إلى فرعونية، وذلك كله بفضل الإسلام وتسامحه لتتفاعل كل هذه الحضارات وعماراتها الخاصة بها؛ لتنتج لنا هذا التنوع المدهش المثير من عمارة المسجد، ليعبر عن مدى ما حصله المسلمون من ثقافات امتزجت وثقافتهم وتزاوجت معها في إطار رابطة الدين الحنيف، الذي لا يفرق ما بين الإنسان وأخيه الإنسان إلا بالتقوى والعمل الصالح، فأين ذلك من ادعاءات هؤلاء المدعين عن تصادم الإسلام مع الحضارات الأخرى.

إن تلك الإطلالات البسيطة على هذه الحقائق التاريخية المعمارية فقط دون غيرها لكافية للتدليل على مدى التسامح الذي بلغه المسلمون عبر التاريخ الإنساني، فما بالنا بالعلوم والفنون والآداب الإسلامية الأخرى التي ساهم المسلمون فيها بجهد وفير ليدعموا مسيرة الحضارة الإنسانية، وليثبتوا أن الإسلام حضارة جامعة ودين تسامح وتفاعل مع الآخر. حتى ولو كره الأخر ذلك وأنكره.